سعد البزاز

الحب في هواء فاسد ...

هـــواء مهجور

● الغرفه تكون من عمة وهواء فاسد وجسد فتاة راكد ..

– المفجوعة ستموت وحيدة ..

– اتركي الاكل بعيدا عنها .. المرض تتالك ..

– نولا مخافة الله ..

– وهل يريد الله هلاكنا ..؟

– .. لولا ثوابه .. اذن ..

ابتعد خفيف الاقدام ، حذاء يمسح الارض ، تتتالى رنات صحن الفي نوا .. عينا (عليلة) الذابلتان ، لمحتا اليد المرتجفة المذعـــورة التـــي الفت بالصحن من خلف الباب... انتهى خفيف الاقدام المتعجلة .. انسحاب اليد من هواء الغرفة كـان خاطفا .. كل شيء يهرب بعيدا عـن انفاس فتاة شبه ميتة ..ليس هنا غير الهواء المهجـور والسرير وصوت (أصطكاك) اجزائه .. و (اصطكاك) اجزاء جسدها المهجور.. انهـا تحس ركـود نفسها ،كأنه تمل الجدران والهواء المتراكم ينوء بـه جسدها .. لقد سحبت اللحظـة نفسا عميقـا بالطريقة التي تعبر عـن محاولة لاطلاق شيء مـا ..

.. ولو حجرة ملفاة في داخلها.. كلمة .. صوت .. مجهـدة لا تطيق سوى استقبال ضوء خافت من فتحتي عينيها الذابلتين ، قاربت ما بيـن يديهـا الممتدين حتى الجزء الاعلى من الفخذين ، انهمـا امامها ورفتـان منعوكتان .. يدان مشطبتان بالخطوط والتكسرات ، اعجـز من ان تمسكا بشيء .. اعجز من ان تكونـا يدين ..

– المفجوعة تموت ..تموتوحيدة ..

ذلك اخر صوت يتردد في الرأس ، انهـا تسمع كـل شـيء ، التمييز بين الاصوات يتم بدفة فائقة ، ان صفيرا حادا يلمع فـــي ارجاء حواسها ، ترصـد اصوات المكان .. المسافات تحسببالاصوات.. .. ابعـد مكـان تنتقل اليه هـو دورة المياه التي يلتصق بابها بـبـاب الحجرة .. لا شيء أبعـد من هذا المكـان في يومهـا .. في مواجهـة باب حجرتها المفتوح حتى النصف ، باب مفتوح للغرفة المقابلة ،يتداخل هـواء الغرفتين : الهواء قديم وساخن ومتراكم ، هو كل ما تبقى من الاب والام ، منذ شهريـن تكرر التصاقها مرتيـن بقاع تلك الغرفة : قاع رطـب وبارد ..

قال الاب قبل ان يسكت الى الابد :

– المرض يأتينا واحدا .. واحدا ..

الام ، اطبقت فمها الى الابد على آهاتها وانآتهـا الموجعة .. فـال الاب :

– لن يكون امامك وقت تعيشين فيه ..

ولم يستطع البكاء ، فقدسكت بعدئذ .. لم يبق الان الا هواء قديم يعبر من حجرة الى حجرة ،نظرت الى الارض : صحن من الرز المخلوط بالمرق .. ادارت وجهها الى الجهة الاخرى حيث مسافة قصيرة قبـل ان تصطدم بالحائط ، مسافة ضيقـة ومعتمة ..

انها لا تملـك ان تصرخ ، اوتضرب على الحائط ، .. لا تملـك ان تنتزع نفسها من السرير .. لا تملـك ان ترى احدا .. لا تملـك ان تسمع احدا .. لا تملك ان يقترب منهـا آحد .. لا احد .. لا احد ... لا أحـد ...

لا تملك ان تحيا .. لا تملك ان تموت ..

أهناك ما هوابشع وأقسى..؟؟

هواء طلق

عيناه خابيتان ، خابيتان لان شعرا غزيرا يتدلى فوقهما وتجاعيد تتراكم حولهمـا ، انطباقهمـا يجعلهمـا صغيرتين وضيقتين ... رأس أشعث بطيء الحركة يتقوس الى الاعلى ، قوس ينفتح بحياء وكآبة.. ان (صاحب) يمطّ فمه ، شفتيه ، محاجر عينيه ، كأنمـا يبتسم ..

انه لم ينتبه الىنفسهلكـن الاخرين الذيـن مروا امام الشاحنة وغصوا بضحكات عالية ، وبدت منهم اشارات متجهة اليه ، ولو انه اهتم بتلـك الغصات والاشارات لالقى نظرةالى حاله ، حيث عضـوه المتراخي الذي يهتز كبندول وسط فخذيه المنفرجين العاريين حتـى الوسط الذي تتراكم عنده دشداشة مخططة ، انه لا يرى عيبا في ذلك، فقـد ملّ ضحكات الاخرين الذين شهدوه عاريا فـي اوضاع متعددة ، ان الجميع يمكـن ان يكونوا عراة امام اناس مـا ، قال صاحب لنفسه ، انهم يتعرون امام نسائهم ، امـا انا فاتعرى امام الجميع ، في كثير مـن الاحيان – قال لنفسه – ان احدا لا يهتـم بي عاريا او غير عار.. اختفت الشاحنة التي تحركتفليـلامن مكانها فسقط شيف البطيخ في الشق الواسع المفتوح من صدر دشداشته ، علقت بصدره اجزاء ندية

ورطبة صغيرة . حمل الشيف مرة اخرى ودحسه في حلقه ، رفع بصره، يراقب المكان حين توقفت الشاحنة . مرة اخرى .. علوة الحاج ..

الحاج عبدالباقي يرخي جسمه على كرسي من القصب ، يرفع ركبته ويثنيها ، مريحا ظهره باسترخاء كلي ... صندوق يلي الاخر ... بحذر يحمله ثم يدفعه ليتلقاه سائق الشاحنة ويضعه على الارض .... حركة متتابعة ، وهو صامت ، ما جدوى ان يقول للحاج انني ابغضك ..

نتبه على صوت الحاج : صاحب ..

ـ ها ..

ـ انت مشؤوم ..

« يعني اموت ووجهي مشؤوم .. »

ـ منذ رأيتك .. الاحوال تتدهور .. آخرها .. ستلغى العلاوي..

اتجه الحاج الى الشاحنة فاتكأ عليها :

ـ كل العميان شؤم ..

تبسم قليلا :

ـ ياليتك اعمى .. انك نصف عينين .. نصف حمال .. نصف رجل .. نصف ..

قهقه عاليا ...

اخذ برتقالة من صندوق على ظهر (صاحب) ، ان (صاحب) لا يرى اللحظة وجه الحاج ، لكنه يضمر انه صارم مع تهدج صوته :

ـ كلب .. سأدوس في امعائك ..

صار الحاج يعبر من امامه باتجاه كرسيه القصبي :

ـ تعال عاجلا ..

الحاج غاضب ، وليكن ، انه يداوم على الغضب والصراخ ..

ـ خلص حتى تروح الى بيت المسلولين .

ـ ماذا افعل هناك ؟..السل يميت ...

ـ يا ريت .. تخلص ..وتخلصنا من شؤمك ..

من يدري بحزنك ..؟.. انت مكروه واهبل .. ما جدوى الحزن.. الاهبل لا يحزن ... والعميان عادتهم اليأس ـ هذا ما كان ابوه يقوله ـ رمق الحاج ، مسبحة الحاج تطقطق بانبركات .

« سيعيش الولد حياته على النصف » ـ في هذا المكان نفسه ، قال ابوك ، ربما منذ خمس عشرة سنة ، او اكثر ، اخذك ابوك واجلسك على اريكة مفروشة بالحصير ، اعطاك صمونة محشوة بالعنبة ، ثم بدأ سيل المارة يحيونه ، كان الاب منتشيا ، يبرز صدره الى امام ويقلب حبات سبحته قريبا من اذنك . قال الناس لابيك :

ـ الحمد لله على سلامة الولد..

ـ نصف اعمى .. ولا ميت ..

ـ ان شاء الله يستطيع ان يعيش عمره بما تبقى له من قوة ..

مر جندي انكليزي نحيف بشارب اصفر ، لعله ضابط ، وقف على رأس الحشد وخاطب اباك بلسان اعوج :

ـ حسنا انه لم يمت .. المشوهون كثيرون هذه الايام ... مشوهو الحرب ..

والتفت الى الحشد :

ـ هل تسمعون ما يحصل في الدنيا هذه الايام ..؟

قال الاب :

ـ الناس لا تجد ما تاكل .. فهل تجد الدولة للمرضى والعميان ؟. واخذك ابوك الى البيت بعد ان انهى العرض الذي قدمتموه في السوق ، اخبرك آنذاك : ان جميع الاولاد المصابين بالتيفوئيد ماتوا .. حظك انت ان تعيش بنصف نظر .. ونصف قوة ..

وشهق الاب وغرق وجهه بكآبة قاتمة ..

ـ غدا .. انت وحدك .. وسبح باسم الله ..

ترك الحاج حبات سبحته ما بين اصابع يديه وهب من مكانه :

ـ كلب !. ماذا تنتظر ؟.. اذهب الى بيت المسلولين .. عجّل !

صاحب يلتقي بعليلة

سلك طريقا قصيرة ، انه يعرف الدار ، كما يعرف الدور كلها ، لكنه لم يدخل هذا البيت ،ولماذا يدخله .؟.. في المرتين اللتين مات فيهما ابوها وامها حمل من الباب تابوتاوتسمع نحيب البنت .

نساء مذعورات صرخن : ان السل يسكن الحارة . ادرك يومذاك ان احدا لم يهتز للموت المفجع الذي اخذ من الدار رجلا وامرأته وان الجميع يبكون انفسهم .لم يبك هو .

الكل يبتعدون عن بيت المسلولين ، فيما كان يتناول الصحن من تحت كرسي الحاج . قال السيد حسين :

ـ لا تبعثوا بأكل اليها .. ارحموها .. يوم واحد وتموت .. عندئذ نحرقها في دارها ..

ضحك الحاج : ـ ان الله سيعطينا اجرا على الاكل الذي نبعثه اليها .. (وقهقه) .. قد يعوضنا هذا الاجر عن خساره ايامنا الآتية ...

كان (صاحب) قد ابتعد خطوات عن كرسي الحاج القصبية .

ـ هي نصف امرأة .. وهو نصف ايضا ..

ضحك الحاج وعلق : يعني .. صاحب وعليلة .. يكونان واحدا ..

صاح السيد حسين : صاحب .. لا ترجع بالصحن .. لا نريده ..

* * *

ـ عليلة .. عيني هذا الاكل ..

تتطلع اليه بوجه ساكن. لا تغادر وجهه ، عيناها تغادرانه .فيتمطى وجهه بحركات غير متناسقة .. تنظر اليه ، لا تغادره ..

ـ بارتاة .. غطّ رجلي ..

رجلاها مكشوفتان في نهاية السرير .. اصابع ناعمة متقاربة لكنها متماسكة كعيدان يابسة .. مدّ يدا ، فكر انها طرية وودودة ، ادخلها تحت الغراش فسحب القماش بوجل على قدميها .. تصطدم

يداه ـ أوه .. كم ان يدي طريتان ـ بالجلد المتكمش .. عظام ناعمة مغطاة بقشرة متكمشة .. انه يحك أصابع قدميها . يدفع يده الى وجه القدم .. سحبت (عليلة) نفسا عميقا .

ـ عليله .. انا .. انا نصف الاعمى ..

توقفت حزينه .. يغص،ظل شاخصة في وجهه : اي والله .. انا .. صاحب الابرص ..

يصحك .. لماذا تضحك ..؟.. وجهها سائل .. لقد وسمت من نظره عيبها ، ود ان ينفي نفسه عندها .. ثم هي معذبة .

صاحب يبوس عليله

انهما تربيجان ، غير متطابقتين ، بينهما فراع هو الاتراحمرارا، خطوه ، بل اقل، ربع خطوه ، بالامكان ان يتحرك من مكانه ،يسمون القطعتان السفلى والعليا في حلقة .. يرفع بصره الخافت الى عينيها .. انهما تربيجتان وسط راس سائل ..، ما الذي يجعلك مترددا ..؟.. ان نفسا عميقا يمس في وجهك ، بل ان انفاسكما تتخالط ، اي، نعم ، سكان صعيدها فوق سفيها تماما ، انها تربيجة لك ، انت ايضا تربيجة ، امراه لك ..تسارعت انفاسه ، لقد رأى وجهه شحب، انت رجل الان ، رجل سهم ، اعطها ، لا يعطيها ، تقدم ، لا يتقدم ، انه يخاف انها ، رجل ، اي رجل ، انت تشعر انك رجل ، هذا كاف، ليس مهما انك نصف ، ماذا تحس ..؟.. ، رجل ، .. انها مغمضة العينين ، تتوقع اللحظة ان ينتهي كل شيء ، تغص او تكاد ، تشهق ، تموت او تكاد ،مهجور هذا الفم ، تفتح ، يثبت ساكنا ، الفم ، الفم بوابة احشائها المليئة بجراثيم السل ، هل يمص السل ، .. يثبت ساكنا ، انها حيوية اللحظة ، تريد ان تنسى موتها ، يثبت ساكنا، تقدم ، ينحني رأسه اكثر ،يسكن تابتا ، هل تمتص نعابها ، السل ... انت ايضا ، هل تبتعد عنها مثلهم ، ها .. انت اقرب اليها منهم ، ها ..؟.. من يقبل ان تقترب من فمه ..؟.. ايضا من تقبل ان تقترب من فمك ..؟.. انها امرأة وتريدك الان .. السل .. ليكن .

لقد اطبق بوابة الهواء ، وحم وهو يقلب شفتيه فوق شفتيها .

عليلة نائمة .. وصاحب يتذكر

عيناه مغتمضتان ، لكنه يشم روائح جسدها والغرفة بدقائقها ... يضع رأسه متبردا على فخذيها ،ان الحياة تبتدىء الان ، لماذا مرت تلك السنوات البعيدة التي نهبت كل ايامه وهو جاثم تحت الموت ... سنوات الركض والشتائم والجسد العاري ونصف الرؤية ، تصبح فجأة في الجانب البعيد .. البعيد .. ، ركض ، تسلق شاحنات ،حمل صناديق الخضار،رضوض في الاصابع والركب والاقدام واضلاع الصدر، أقدام تتعثر .. ثمة كابوس بعيد يحضر الان ، كابوس مميت ، حين تأخر يوما في العودة الى الخان ، وحلت العتمة على عينيه في ذلك الليل ، سقط في وحل الشوارع في ليل مظلم بارد ، كان العالم اسود .. لقد تقلب على جنبيه وغمرته مشاعر الغياب .. « هل سينتهي الان كل شيء ..؟ » « اهو الموت ..؟ » « اذا لم يكن الموت .. فما الذي يجري اذن » « اوه ما هذا الصليل المثلج ؟ .. » ... قيل عند رأسه في الخان :

ـ انه سيموت بالروماتزم ..

ـ .. بل بالسل ..

ثم لم يبق احدحوله .. وجع باق حتى العظم ..

.. في الايام التالية قال الحاج :

ـ منذ وقعتك .. وانت ذابل صافن .. ما هذا ..؟..

علق رجل فريب : لقد رأى الموت بأم عينيه ..

ـ اين هما عيناه ..

ثم ضحكا ..

عليلة تصحو من نومها

تململت عليلة ...

ـ صاحب ..

ـ ها ...

سحبت جسمها من الفراش :

ـ صاحب .. هل يبدو وجهي مخيفا ..

ـ بالنسبة لي .. انت اجمل ما في العالم ..

همت بابتسامة لم تخرج :

ـ اريد ان اعيش .. هل استطيع..؟..

ـ انا ايضا .. نحن منبوذان ..

ـ لماذا يخافون مني ..؟

ـ لانك تحملين الموت ..

ـ هل تبقى معي الى ان اموت ..؟

ـ أبقى معك الى الابد .. نحن قرينان ..

ـ هل تحبني ..؟..

ـ اموت فيك ...

ـ نسيك الموت .. يا ليته ينساني ..

ـ انت عيناي .

ـ انت قلبي ..

ـ لم يدارني أحد من زمان .. بل لم يدارني احد يوما .. لم يتحدث الي احد من زمان ..

ـ لا اعرف كيف اتحدث الى فتاة..

ـ في نفسي كلام كثير ارغب ان اقوله .. لكن نفسي تخوني .. اني لا أطيق ..

ـ من زمان ، اخاف من النساء .

ـ من زمان ، كانت لي قوة انط بها في الحارة واضرب الصبيان بالحصى ..

ـ عمري ثلاثون .. هم يقولون ان عمري ثلاثون .. لا اعرف عامي الاول .. لا اعرف كيف مر عمري ، احس بشيء ثقيل موجع في روحي ..

ـ انت مليء بالحياة ..

ـ هذه اجمل .. لا ..

ـ ماذا ..؟..

ـ هذه اجمل ساعة في حياتي .. لكني اخاف ان تهرب مني ..

ـ انت ايضا .. تعرف اني ميتة..

ـ لا .. لا .. لن تموتي .. يجب الا تموتي ..

ـ فرك رأسي وامسح رأسي اذن !

النهاية

لم تمت عليلة في موعد موتها !

بغداد